شروط الالفاظ :

نجد في ثنايا كتاب البيان والتبيين كثيرا من المصطلحات البلاغية والنقدية وقد وردت كلمتا الفصاحة والبلاغة في وصف الالفاظ التي اشترطها الجاحظ للنص الجيد فقد جعل بلاغة اللفظ مقابلة لشرف المعنى .(٣٥)

وقد سبق بشر بن المعتمر الجاحظ في الاشارة الى شروط اللفظ في صحيفته التي اوردها الجاحظ نفسه في البيان والتبيين حين اوجب ان يكون اللفظ الجيد شيقاً عذباً وفخماً سهلاً (٣٦)

وقال الجاحظ (وكما لاينبغي ان يكون عاميا وساقطا سوقيا فكذلك لاينبغي ان يكون وحشيا)(٣٧) : وقد اكثر من التنبيه على وجوب تجنب الوحشي من الكلام او الحوشي منه ولابد من ان نقف عند هاتين الكلمتين لمعرفة دلالتيهما اللغوية التي تؤدي الى فهم رأيه البلاغي والنقدي فقد ذكر في المعاجم ان الوحشي والحوشي من الكلام والغرائب والشواذ والنوادر متقاربة وأن حوشي الكلام هو وحشية وغريبة(٣٨) . وقيل ان الوحشي من الكلام مانفر عن السمع ويقال له حوشي كأنه منسوب الى الحوش وهي بقايا ابل وبار بأرض قد غلبت عليها الجن فعمرتها ونفت عنها الانس لا يطأها انيس واذا كانت اللفظة حسنة مستغربة لايعلمها الا العالم المبرز والاعرابي القح فتلك الوحشية . قال ابراهيم بن المهدي لكاتبه عبدالله بن صاعد . اياك وتتبع وحشي الكلام طمعا في نيل البلاغة فأن ذلك هو العيب الاكبر وعليك بالسهل مع تجنبك السفل .(٣٩)

اما الفصاحة كما عرفها النقاد والبلاغيون فهي ان يكون اللفظ جزلا ليس غريبا ولا سوقيا مبتذلا وان يكون مستقيما لاتخرج دلالته على استعمال العرب(٤٠)

ومن شروط الفصاحة ان تكون الكلمة مألوفة غير غريبة فاذا تعمد المتكلم ايراد الغريب فذاك هو التشادق الذي نهي الرسول (ص) عنه . والذين يتقصدون ايراد

---

(٣٥) البيان ١ / ٢٥٤

(٣٦) نفسه ١ / ١٣٦

(٣٧) نفسه ١ / ١٤٤

(٣٨) الصحاح . لسان العرب مادة وحش

(٣٩) الضرائر وما يسوغ للشاعر ٣٩

(٤٠) دراسات بلاغية / ٤٢٠

الغريب من الالفاظ وهم من غير الاعراب قوم مدخولون في عقولهم . والفأفأة والقرقرة من الالفاظ الغريبة المستهجنة كما ان تجنب الغريب لايعني استعمال السوقي . فمن شروط البلاغة والفصاحة الا يلجأ المتحدث الى السوقي من الالفاظ .(٤١)

كما ان تكلف تهذيب الالفاظ وتدقيقها يذهب جمال النص ويورده على غير ما اراده صاحبه والصواب هو الاقتصاد . ففي (الاقتصاد بلاغ وفي التوسط مجانية للوعورة وخروج من سبيل من لايحاسب نفسه) .

لقد نص الجاحظ في اكثر من موضع على وجب توفر الطبع وعدم التكلف في استعمال الالفاظ وعاب على الادباء التشادق والتكلف في استعمال الغريب من الالفاظ ومالم يعد له وجود في حياة الحاضرة المترفة وقد طبق دعوته هذه في نقد كلام سجل عن بعض الرواة فيه تكلف واضح في استعمال الفاظ غريبة .(٤٢)

واذا كان الجاحظ قد تحدث كثيرا عن شروط اللفظة مما يفهم منه اهتمامه بكونها مفردة فأن حديثه عن تنافر الالفاظ يدلل على نظرته الى دلالة النص الادبي جملة فقد تكون اللفظة جميلة غير ثقيلة . ولكنها اذا ضمت الى غيرها ثقلت وتنافرت .

(ومن الفاظ العرب الفاظ تتنافر وان كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها الا ببعض الاستكراه فمن ذلك قول الشاعر : ـ

وقبر حرب بمكان قفر

وليس قرب حرب قبر(٤٣)

ان امثال هذا الشاهد اشعار واقوال كثيره يرددها الناس على انها ضرب من الالغاز او الممازحات التي تختبر بها مرونة لسان المخاطب وطلاقته في النطق وقد اورد الجاحظ تعليقا طريفا يؤكد حسن تفسيره والتفاته الى جرس الالفاظ او تنافر حروفها او تنافرها مع ماضمت اليه من الفاظ وذكر رأى جهال الناس ممن لم يفطن الى مافطن اليه هو بقوله :

---

(٤١) البيان ١ / ٣٧٧ ـ ٣٧٨

(٤٢) البيان ١ / ٣٧٨ دراسات / طبانة ٢٠٣

(٤٣) البيان ١ / ٦٥ ـ ٦٧

(ولما رأى من لا علم له ان احدا لا يستطيع ان ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتمتع . ولا يتلجلج . وقيل لهم ان ذلك مما اعتراه اذ كان من اشعار الجن صدقوا بذلك)(٤٤)

وقد رأى الجاحظ ان ثقل الالفاظ متأت من اجتماعها مع غيرها وتقاربها معا بالحروف مما جعلها متنافرة ثقيلة في النطق .

ويتجاوز الجاحظ ائتلاف الالفاظ مع يجاورها في مخارج حروفها الى التنبيه على مجموع الفاظ البيت ووجوب كونها متوافقة مؤتلفة تجمعها وحدة عضوية وفكرية فيكون البيت عند ذلك متلاحم الاجزاء سهل المخارج . فتعلم بذلك انه قد افرغ افراغا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري الدهأن . اما اذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب اختها مرضى موافقا كان على اللسان عند انشاد ذلك الشعر مؤونة(٤٥)

ان بحث الالفاظ مفردة ومركبة يجر الجاحظ الى بحث الروح الشعرية المتأتية من مجموع البيت الشعري والمتمثلة بانسياب الفاظه وموافقتها لمعانيه موافقة يكون فيها البيت متلاحما منسابا على اللسان مؤثراً في النفس .

(واجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء سهل المخارج . فتعلم بذلك انه قد افرغ افراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان واجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملساء . ولينة المعاطف سهلة . وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده والاخرى تراها سهلة لينة رطبة مواتية سلسلة النظام خفيفة على اللسان حتى كان البيت بأسره كلمة واحدة وحتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد .(٤٦)

وقد تابع ابن قتيبة هذا المبحث حين تحدث عن التكلف في الشعر وانه يراه اذا كان البيت مقرونا بغير جاره ومضموما الى غير لفقه ولذلك قال عمر بن لجا لبعض الشعراء : انا اشعر منك قال : ولم ذاك ؟ فقال لاني اقول البيت واخاه ولانك تقول البيت وابن عمه(٤٧) . وبذا يتجاوز تأثير اللفظة بما بعدها الى النص الشعري

---

(٤٤) نفس المصدر السابق

(٤٥) نفسه ١ / ٦٥

(٤٦) المصدر السابق ١ / ٦٧ وانظر في النقد ـ عتيق ٣٣٤

(٤٧) الشعر والشعراء ١ / ٣٤

المتكامل حين يبدو البيت مسبوكا سبكا تاما متعلقا بما يليه تعليق قران وبنظام سلس يوفر للشعر وحدة موضوعية وترابطا معنويا قويا .

اختلاف الالفاظ باختلاف البيئة :

ويرى الجاحظ ان المفردات اللغوية متفاوتة بتفاوت بيئات المتكلمين بها ، فاللغة العربية تختلف مفرداتها واساليبها باختلاف احوال المتكلمين بها فلغة البادية غير لغة الحاضرة :

(وكما لاينبغي ان يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا فكذلك لاينبغي ان يكون غريبا وحشيا الا ان يكون المتكلم اعرابيا ، فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات كما ان الناس انفسهم في طبقات(٤٨)

ان لغة الحواضر نفسها تختلف مفرداتها تبعا لقربها من البادية منبع الفصيح العربي وتبعاً لطبيعة سكانها وتركيبهم الاجتماعي ومدى اختلاطهم بغير العرب. وهنا يلفت الجاحظ انظارنا الى تفاوت لغة اهل الامصار العربية نتيجة اختلاف اصول سكانها فتجد ملامح لغوية تميز مفردات أهل البصرة والكوفة عن أهل الشام ومصر وهي غير الملامح اللغوية المعروفة عند أهل مكة والمدينة . وكان الجاحظ يريد أن يقول أن اللغة لاتتأثر بالبيئة فحسب بدوية أو حضرية بل تتأثر بطبيعة اهلها الساكنين فيها حيث تعيش مفردات في بيئة معينة وتنحسر في بيئة اخرى وإن كانت كلها عربية صحيحة .

(واهل الامصار انما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ولذلك تجد الاختلاف في الفاظ من الفاظ اهل الكوفة والبصرة والشام)(٤٩)

ونقل لنا محاورة بين اهل مكة ومحمد بن مناذر الشاعر البصري الذي ادعى ان اهل مكة افصح من اهل البصرة لانهم احكى الناس لالفاظ القرآن وأكثرهم موافق له اما اهل الكوفة والمدينة فقد تتبع الجاحظ مفرداتهما اللغوية من حيث تأثرها بعامل اخر غير التفاوت بالفصاحة فيدلنا على كثرة المفردات غير العربية في كلامهم لتأثرهم بمن نزل فيهم من غير العرب .

---

(٤٨) البيان ١ / ١٤٤

(٤٩) المصدر السابق ١٨٢

اختلاف الاساليب باختلاف المتحدثين :

ونستطيع ان نجد نظرة الجاحظ الثاقبة وذوقه الادبي المرهف في نظره الى الاساليب المختلفة ليس باختلاف البيئات والحواضر فحسب بل باختلاف الادباء والبلغاء انفسهم واختلاف المخاطبين ممن يوجه اليهم الكلام شعرا ونثرا . فالاصالة تجعل صاحبها متميزا بأسلوب خاص ينفرد به فيقول :

(ولكل قوم الفاظ حظيت عندهم وكذلك كل بليغ في الارض وصاحب كلام منثور وكل شاعر في الارض وصاحب كلام موزون فلابد ان يكون قد لهج والف الفاظا باعيانها ليديرها في كلامه وان كان واسع العلم غزير المعاني كثيراللفظ)(٥٠)

ثم يطبق هذه النظرية على اصحاب الملل والنحل والفرق الذين اختص كل منهم بأفكار ومعان جعلت لهم اساليب متميزة في طرائق تعبيرهم واختيار الالفاظ الخاصة بهم التي تدور في كلام بلغائهم . ويذكر لنا مثلا مستنبطا مما كان يدور على ألسنة الزنادقة ومن يدور في فلكهم حيث تكثر الفاظ معينة في كلامهم كالتناكح والتنتاتج والمزاح والنور والظلمة والجاحظ نفسه يلجأ الى اختيار الاسلوب المتميز بمذهب اهل الكلام اذا كان كلامه موجها الى رجال الكلام العارفين بدلالة الالفاظ الواعين بمدلولاتها .

(وارى أن الفظ بالفاظ المتكلمين مادمت خائضا في صناعة الكلام مع خواص اهل الكلام فان ذلك افهم لهم عني واخف لموؤنتهم على ولكل صناعة الفاظ قد حصلت لاهلها بعد امتحان سواها فلم تلزق بصناعتهم الا بعد ان كانت مشاكلة بينها وبين تلك الصناعة)(٥١)

ان الالفاظ التي يخاطب بها المتكلمون هي غير الالفاظ التي يخاطب بها التجار والعوام كما ان الالفاظ التي يخاطب بها اهل المدينة هي غير الالفاظ التي يخاطب بها اهل البادية ، وقبيح بالمتكلم ان يفتقر الى الفاظ المتكلمين في خطبة او رسالة او في مخاطبة العوام والتجار او في مخاطبة اهله وعبيده او في حديثه اذا

---

(٥٠) الحيوان ٣ / ٣٦٦

(٥١) الحيوان ٣٦٨

تحدث او في خبره اذا اخبر وكذلك من الخطأ ان يجلب الفاظ الاعراب والفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل)(٥٢)

لقد اقر الجاحظ ان اختلاف الاساليب تابع لاختلاف مستويات الناس العقلية والاجتماعية فما يفهمه البدو هو غير مايوجه الى اهل الحاضرة وما يوجه الى الادباء والبلغاء هو غير مايخاطب به العوام فما دام الناس في طبقات من حيث مستواهم الفكري فكذا يجب ان تكون الاساليب التي يخاطبون بها دون ان يغض من شآن المتحدثين او يفاضل بين اساليبهم فيقول : (الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسمج والخفيف والثقيل وكله عربي وبكل قد تمادحوا وتعابثوا)(٥٣)

ان نظرة الجاحظ الثاقبة الى الاساليب ودلالتها على المتحدثين بها مكنته من نقد النصوص الشعرية والنثرية والحكم على صحة نسبتها الى اصحابها من خلال النظر الى اسلوبها فاذا كان الرواة والمحدثون ينظرون الى صحة الاسناد والرواية فأن الجاحظ انطلق من نظريته النقدية السابقة الى الحكم على بعض النصوص ونسبتها الى اصحابها من خلال نظرته الفاحصة الى معانيها واساليبها ومشاكلتها لاسلوب قائليها فهو يروي خطبه لمعاوية رواها شعيب بن صفوان وغيره قيل انه قالها قبيل موته يقول فيها :

ايها الناس أها قد اصبحنا في دهر عنود وزمن شديد يعد فيه المحسن مسيئاً ويزداد فيه الظالم عتوا . ولا ننتفع بما علمناه ولا نسأل عما جهلناه ..) ثم يقول واصفا اهل زمانه :

(فهم بين شريد خائف منقمع وساكت مكعوم . وداع مخلص وموجع ثكلان قد اخملتهم التقية وشملتهم الذلة ..)(٥٤)

فيحاول الجاحظ تحليل هذه الخطبة من خلال نظره الى الفاظها واسلوبها وروحها ومقارنتها بماعرف به كل من معاوية والامام علي فوجد (ان فيها ضروبا من العجب منها ان الكلام لايشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية ومنها ان هذا

---

(٥٢) الحيوان ١٤٤

(٥٣) البيان ١ / ١٤٤

(٥٤) البيان ١ / ٦١

المذهب في تصنيف الناس وفي الاخبار عما هم عليه من القهر والاذلال ، ومن التقية والخوف اشبه بكلام علي رضي الله عنه ومعانيه وحاله منها بحال معاوية . ومنها انا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ولا يذهب مذاهب العباد(٥٥)

اختلاف الاساليب باختلاف المعاني

اكد الجاحظ هذه الفكرة التي تنادي بأن كل معنى من المعاني لايجمل الا بالفاظ المشاكلة له(٥٦) ، فقال :

(ان سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعاني وقد يحتاج الى السخيف في بعض المواضع وربما امتع بأكثر من امتاع الجزل والفخم من الالفاظ والشريف والكريم من المعاني(٥٧)

ونجده يؤكد هذا الرأى في كتبه الثلاثة ، البيان والتبيين والحيوان والبخلاء فاذا كان موضوع الحديث مضحكا وملهيا فاستعملت فيه الاعراب انقلب عن جهته وان كان في لفظه سخف وابدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على ان يسر النفس يكربها(٥٨)

ويحذر الجاحظ من تغير الاساليب الخاصة لموضوعاتها ومعانيها (فمتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام العرب فاياك ان تحكيها الا مع اعرابها ومخارج الفاظها فانك ان غيرتها بأن تلحن في اعرابها واخرجتها مخارج المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطعام فاياك ان تستعمل فيها الأعراب او تتخير لها لفظا حسنا)(٥٩)

---

(٥٥) البيان ١ / ٦١ والخطبة مروية لمعاوية في عيون الاخبار ٣ / ٢٣٧ ، اعجاز القرآن ١٢٣ ، العقد الفريد ٤ / ٨٨ ورواها ابن ابي الحديد منسوبة الى الامام علي (ع) في شرح البلاغة ١ / ١٧٢ .

(٥٦) دراسات في تاريخ النقد ٢٠٦

(٥٧) البيان ١ / ١٤٥

(٥٨) الحيوان ٣ / ٣٩

(٥٩) نفسه ١ / ١٤٥

وهكذا طبق الجاحظ دعوته هذه في كثير مما نقله من حكايات الاعراب او نوادر المولدين وكتاب البخلاء ماثل امامنا في قصصه ونوادره التي نقلها الجاحظ بالفاظها واساليبها المطابقة لحال المتكلمين بها متكلمين او مجانا بدوا او حضرا .

لقد قرر الجاحظ من خلال نصوصه الكثيرة التي اوردها ان ضروب المعاني تؤدي الى اختلاف الاساليب باختلاف الالفاظ المستعملة والافكار التي يوردها المتحدث فلكل (ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجزل للجزل والافصاح في موضع الافصاح والكناية في موضع الكناية)(٦٠) . والجاحظ هنا لم يكتف بوجوب مطابقة الالفاظ لضروب المعاني من حيث الخفة والغرابة والسلاسة والسماحة وانما تجاوز الالفاظ الى الاساليب بمظاهرها المختلفة فاللجوء الى الكناية والمجاز من الاساليب الواجبة في كثير من المعاني والمواقف كما ان الاطالة والايجاز تحتمهما طبيعة المعاني التي يراد التحدث عنها وتتحكم بها طبيعة المخاطبين في الوقت نفسه .(٦١)

ومع ان الجاحظ قد ذكر ان الايجاز والاطناب اسلوبان من الاساليب التي استعملها العرب الا ان كثرة الاخبار والنصوص الادبية الجيدة التي اوردها معلقا عليها او موردا تعريفات العلماء في حدود البلاغة والبيان ، في كل هذه المعالجات البيانية الواردة في كتبه نفهم ان الجاحظ يميل الى الايجاز لان النفوس (اذا كانت الى الطرائف أحن ، وبالنوادر اشغف ، والى قصار الاحاديث اميل ، وبها احب انها خليقة لاستثقال الكثير وان استحقت تلك المعاني الكثيرة وان كان ذلك الطويل انفع ، وذلك الكثير ارد)(٦٢) . ويوجز رأيه في تفضيل الايجاز بقوله (واحسن الكلام ماكان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه)(٦٣)

ومن هذه الفكرة انطلق الجاحظ باحثا عن اسرار الاعجاز القرآني مؤيدا رأيه في الايجاز مشيرا الى كتاب اخر غير كتاب الحيوان خصه للتأليف في آيات القرآن الكريم (ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الايجاز والحذف وفرق مابين الزوائد والفضول والاستعارات فاذا قرأتها رأيت فضلها في الايجاز

---

(٦٠) الحيوان ٣ / ٣٩

(٦١) الحيوان ٦ / ٧ ـ ٨

(٦٢) الحيوان ٦ / ٧ ـ ٨

(٦٣) البيان ١ / ٨٣

والجمع للمعاني الكثيرة بالالفاظ القليلة على الذي كتبته لك في باب الايجاز وترك الفضول)(٦٤)

ثم يذكر امثلة لما جاء في القرآن الكريم من شواهد الايجاز في الايات الكريمة وستجد آراء الجاحظ هذه تمثل بدايات مهمة لمنهج عبد القاهر الجرجاني في دراسة اعجاز القرآن وما عرف عنده (بالنظم) الذي بدأ الجاحظ الحديث فيه من موقع الكلمة الواحدة ودلالتها على المعاني وعلاقتها بما يضم اليها من الفاظ في السياق العام .

القديم والمحدث :

حفلت كتب الجاحظ بشواهد من الشعر العربي القديم جاهلية واسلامية واخرى من الشعر العباسي . وقبل ان يطلع القارىء على رأى الجاحظ في مسألة الشعر القديم والمحدث يستطيع ان يحكم مبدئيا بأنه رجل غير متعصب لقديم حديث . فقد عاصر الجاحظ فترة نضج الشعر في العصر العباسي وحركة تجديده وتطوره . واخذ عن العلماء المتعصبين للقديم ولكنه لم يكن تبعا لواحد منهم ولم يؤثر في الوقت نفسه الشعر المحدث على القديم وانما اعلن رأيه واضحا صريحا في اعجابه بالجيد من الشعر قديمه وحديثه ولكنه قبل ان يقرر هذا الحكم نظر نظرة شاملة الى مجموع الشعر العربي قديمه وحديثه اعرابيه ومولده . فأعلن ان عامة العرب والاعراب هم اشعر من عامة المولدين وان شعراء البدو اشعر من شعراء الامصار (والقضية التي لااحتشم فيها ولا اهاب الخصومة فيها ان عامة العرب والاعراب والبدو والحضر من سائر العرب اشعر من عامة شعراء الامصار والقرى من المولدة والنابتة وليس ذلك بواجب لهم في كل ماقالوه)(٦٥)

ولا نرى في قوله هذا اي اثر لنظرية العرق في الادب فهو لايريد بها ان العربي سواء كان المرء عربيا في الحاضرة او اعرابيا في البادية اشعر من العرق المولد الذي يعيش في مدينة اوقرية كما ذهب الى هذا .. د . احسان عباس(٦٦) ولكننا نراه نظر الى النتاج الشعري نظرة فنية تتفحص ملكة الشعر والظروف المعينة عليها فالعرب

---

(٦٤) الحيوان ٣ / ٧٦ انظر اثر القرآن في النقد الادبي ١ / ٩٧

(٦٥) الحيوان ٢ / ١٣٠

(٦٦) تاريخ النقد . احسان عباس / ٩٧

ممن امتلكوا الشاعرية اقدر بطبعهم من المولدين لانهم يقولون عن سجية مواتية وموهبة تصقلها البيئة الاصيلة بلغتها ومفرداتها واخيلتها دون حاجة الى تعلم واكتساب . وقد اكد قوله هذا في الجزء الثالث من البيان والتبيين الذي خصه للدفاع عن العرب والرد على افتراءات الشعوبية (فكل شيء للعرب انما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكر ولا استعانة وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام والى رجز يوم الخصام حين يمتح على رأس بئر او يحدو ببعير او عند المقارعة او المناقلة او عند صراع او في حرب فما هو الا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذي اليه مقصد فتأتيه المعاني ارسالا وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ثم لايقيده على نفسه . ولا يدرسه احدا من ولده وكانوا اميين لايكتبون ومطبوعين لايتكلفون)(٦٧)

هذا في نظرة الجاحظ العامة الى الشعر ولكنه لم يتجاهل الشواهد الماثلة في الشعر العربي الجيد في عصره سواء قاله عرب او مولدون ويعلن انكاره للمتعصبين الذي يشيحون بانظارهم عن الشعر المحدث لانهم قد علقوا بالشعر العربي القديم فحسب فيقول بعد القاعدة العامة التي ذكرها عن اصالة الشاعر العربي : ـ

(وقد رأيت اناسا منهم يبهرجون(٦٨) اشعار المولدين ويستسقطون من رواها ولم ار ذلك قط الا في راوية للشعر غير بصير بجوهر مايروي ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي اي زمان كان) .

اما الفرق بين الاعرابي والمولد فهو ليس بسبب العرق وان الغريزة تتفاوت بتفاوت العرقين(٦٩) بل بسبب اصالة العربي وموهبته التي جعلت الشعر جزء من طبعه وسليقته فصار متمكنا من القصيدة مع طول نفس وعدة لغوية وفكرية . اما المولد فانه اذا منح الموهبة الشعرية فأن عدته اللغوية والتعبيرية قد تخونه اذا طالت قصيدته وقد تمثل الجاحظ بقول لاحد الكتاب المشهورين ممن لم يكن لهم نصيب وافر في الشعر وذلك انه سئل : مالك لاتجوز البيت والبيتين والثلاثة ؟ قال ان جزتها عرفوا صاحبها . فقال له السائل : وما عليك ان تعرف بالطوال الجياد . فعلم انه لم يفهم عنه . فالكاتب هنا لم يكن شاعرا ولم تكن له الموهبة الشعرية التي تعينه على نظم قصائد فاذا تجاوز البيت والبيتين فضح نفسه بكونه ليس شاعرا ثم

---

(٦٧) البيان ٣ / ٢٨

(٦٨) البهرجة الباطل والردىء من الشيء ، اي يعدون اشعار المولدين باطلة . والنص في الحيوان ٢ / ١٣٠ .

(٦٩) رأى د . احسان عباس ٩٧

يجعل الجاحظ الفرق بين المولد والاعرابي فيقول (ونقول ان الفرق بين المولد والاعرابي ان المولد يقول بنشاطه وجمع باله الابيات اللاحقة باشعار اهل البدو فاذا امعن انحلت قوته واضطرب كلامه)(٧٠)

هذا حكمه العام ونظرته الشاملة الى مجموع الشعر العربي اما التفصيلات المتعلقة بوجود الجيد في كل زمان ومكان فاننا نجد الجاحظ يتتبعه بعين بصيرة وفكر ناقد دون ان يحكم عصبية زمن او مكان او جنس فهو يتمثل باشعار الاقدمين ويعلق عليها كما يتمثل باشعار المحدثين في المواطن التي تقتضي ذلك .

فحين تحدث الجاحظ عن الخطباء والشعراء قبل الاسلام والاسلاميين ثم عن خطباء الامصار وشعرائهم المولدين ذكر بشار بن برد اولهم ووصفه أنه كان (شاعراً راجزاً وسجاعاً خطيباً وصاحب منثور ومزدوج وله رسائل معروفة(٧١) ثم ذكر خبره مع رؤبة بن العجاج في مجلس عقبة بن سلم حين تحدى رؤبة بشاراً من ان يقول رجزاً مثل رجزه فكان ان قال بشار ارجوزته المشهورة :

ياطلل الحي بذات الصمد
بالله خبر كيف كنت بعدي

ومعلوم ان الرجز من شعر البادية فكأن الجاحظ اراد بهذا الخبر التمهيد للحديث عن شاعرية بشار وانه كان مجيداً مطبوعاً فتم الخبر السابق برأيه في الشعراء المطبوعين (والمطبوعين على الشعر من المولدين بشار العقيلي والسيد الحميري وابو العتاهية وابن ابي عيينه . وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل وسلما الخاسر وخلف بن خليفة وابان بن عبدالحميد اللاحقي اولى الطبع من هؤلاء وبشار اطبعهم كلهم(٧٢) ومصطلح المولدين هنا يمثل من كان من اصل عربـي او غير عربـي يريد به من نشأ وترعرع في الاسلام(٧٣) . وذكر بشاراً مرة

---

(٧٠) الحيوان ٣ / ١٣٢

(٧١) البيان ١ / ٤٩

(٧٢) البيان ١ / ٥٠

(٧٣) من الشعراء العرب الذين ذكرهم ابن ابي عيينة بن المهلب بن ابي صفرة من شعراء الدولة العباسية وخلف بن خليفة من معاصري جرير والفرزدق .

اخرى حين تحدث عن الخطباء الشعراء وذكر كلثوم بن عمرو العتابي (وكان من ولد عمرو بن كلثوم كما يقول الجاحظ) ممن يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن (وعلى الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمري ومسلم بن الوليد واشباههما ثم يختم قوله بحكم نقدي يبت فيه بتفضيل بشار على سائر المولدين في البديع (وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع ولم يكن في المولدين اصوب بديعاً من بشار وابن هرمة)(٧٤) .

وحين استطرد الجاحظ في الحيوان عن حماد عجرد وبعض هجائه لبشار اكد حكمه السابق بتفضيل بشار على جميع الشعراء المحدثين (وما كان ينبغي لبشار ان يناظر حمادا من جهة الشعر وما يتعلق بالشعر لان حمادا في الحضيض وبشارا مع العيوق(٧٥) . وليس في الارض مولد قروي يعد شعره في المحدث الا وبشار اشعر منه(٧٦) .

وقد طبق الجاحظ نظرته في البحث عن الجيد بغض النظر عن زمانه ومكانه حين قارن بين معنيين ورداً لشاعرين جاهلي واخر محدث باحثا عن المفاضلة بينهما بمقدار اجادتهما في ابراز المعنى ابرازاً فنياً جميلاً فقد ذكر صفة الخيل والجيش في قول بشارا

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
واسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ثم ذكر قول عمرو بن كلثوم :

تبني سنابكهم من فوق ارؤسهم
سقفا كواكبه البيض المباتير

---

(٧٤) نفسه ١ / ٥١

(٧٥) العيوق نجم احمر مضيء في طرف المجرة الايمن يتلو الثريا لايتقدمه .

(٧٦) الحيوان ٤ / ٤٥٤ ,

وعلق مفضلاً قول بشار (وهذا المعنى قد غلب عليه بشار)(٧٧)

فعمرو بن كلثوم وان سبق بشاراً بوصف الغبار المتصاعد من سنابك الخيل الا ان بشارا قد اخذه واجاد في تصويره اكثر من عمرو فكأنه صار احق به وهو رأى نجده واضحاً فيما بعد عند ابن طباطبا والقاضي والجرجاني .

اما ابو نؤاس فهو من الشعراء الذين استثناهم الجاحظ من الظاهرة الشعرية وتفضيل عامة شعر العرب والاعراب على شعراء الامصار والقرى استثناهم بقوله (وليس ذلك بواجب لهم في جميع ما قالوه) حيث جعل بعد ذلك ابا نؤاس بعد بشار في تقديمه على الشعراء المولدين .

(فانا لانعرف بعد بشار اشعر منه)(٧٨) ولم يكن عرق ابي نؤاس حائلا بينه وبين الاجادة الشعرية لانه تثقف ثقافة عربية اصيلة واخذ العربية واسرارها من مظانها الرئيسة فعاش في البادية زمنا وروى جيد الاشعار والارجاز وحين تحدث الجاحظ عن وصف ابي نؤاس لكلاب الصيد فضل طردياته على اشعار فيره من المولدين ورأى ان اجادته بسبب كونه عالما راوية حافظا لاشعار العرب فضلا عن ممارسته الفعلية للصيد ومعايشته للكلاب مما يجعل اشعاره في هذا الباب مفضلة على غيره في اجادته ما لايجيده بعض الاعراب في وصف الصيد ورحلاته والكلاب قائلا (وانا اكتب لك رجزه في هذا الباب لانه كان عالما رواية وكان قد احب الكلاب زمانا وعرف منها مالا تعرفه الاعراب وذلك موجود في شعره وصفات الكلاب مستقصاة في اراجيزه هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة .

وان تأملت شعره فضلته الا ان تعترض عليك فيه العصبية او ترى ان اهل البدو ابدا اشعر وان المولدين لايقاربونهم في شيء فأن اعترض هذا الباب عليك فأنك لاتبصر الحق مادامت مغلوبا(٧٩) .

وقد طبق الجاحظ فعلا دعوته الى نبذ التعصب في كتبه وشواهده فتمثل باشعار ابي نؤاس في الطرديات ولم يكتف بالشاهد او الشاهدين وانما تمثل بسبع طرديات في هذا الباب .

وقد فضل ابياتا لابي نؤاس على ابيات لمهلهل بن ربيعة يقول فيها ابو نؤاس :

---

(٧٧) المصدر نفسه ٣ / ١٢٧

(٧٨) الحيوان ٤ / ٤٥٧

(٧٩) الحيوان ٢ / ٢٧ وانظر رأي الجاحظ في ابي نؤاس ايضا في تاريخ النقد ـ عتيق ـ ٣٦٣

على خبز اسماعيل واقية البخل
وقد حل في دار الامان من الاكل
وماخبزه الا كعنقاء مغرب
تصور في بسط الملوك وفي المثل
وما خبزه الا كليب بن وائل
ليالي يحمي عزة منبت البقل
واذ هو لايستب خصمان عنده
ولا القول مرفوع بجد ولا هزل

واعجاب الجاحظ بابيات ابي نؤاس متأت من الصورة الشعرية الواردة في البيت الذي وصف فيه كليبا فرأه اجود من وصف مهلهل قائلا (وابيات ابي نؤاس على انه مولد شاطر اشعر من شعر مهلهل في اطراق الناس في مجلس كليب(٨٠) .

ولكن اعجاب الجاحظ بشعر ابي نؤاس لم يحل دون ذكر مساوئه وتتبع مآخذه وسقطاته التي بدت له في قصيدة يهجو بها الشاعر ابانا اللاحقي ويتهمه فيها بالزندقة وقد حلل الجاحظ وصف ابي نؤاس لمهجوه ورآه غير موفق ودال على جهل ابي نؤاس بمعاني الهجاء التي اراد اضفاءها على مهجوه خاصة مايتعلق بوصفه زنديقا وعده في زمرة المجان (وتعجبني من ابي نؤاس وقد كان جالس المتكلمين اشد من تعجبي من حماد حين يحكي عن قوم من هؤلاء قولا لايقوله احد وهذه قرة عين المهجو والذي يقول سبحان ماني ويعظم امر عيسى تعظيما شديدا فكيف يقول انه من قبل شيطان . وكأن الجاحظ يريد ان يقول ان ابا نؤاس جاهل بدقائق مذهب الزنادقة واعتقادهم وبذا اساء في وصف ابان واتهامه بها . ثم يقول الجاحظ معقبا على قول ابي نؤاس في عد ابان في عصبة المجان فيرى بأنه لايمكن ان يدرج معهم فابان وهو سكران اصح عقلا من هؤلاء وهم صحاة . فاما اعتقاده فلا ادري ماأقول لك فيه لان الناس لم يؤتوا في اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر ولكن الناس ناس وعادات وتقليد للاباء والكبراء ويعلمون على الهوى وعلى مايسبق الى القلوب ويستثقلون التحصيل ويهملون النظر حتى يصيروا في حال متى عاودوه وارادوه نظروا بابصار كليلة واذهان مدخولة مع سوء عادة والنفس لاتجيب وهي مستكرهة .

---

(٨٠) الحيوان ٣ / ١٢٩

واما مآخذ ابي نؤاس الاخرى فقد اوردها الجاحظ عرضا في مواطن مختلفة من كتاب الحيوان يمكن ان تجمل في مبالغاته المفرطة وفي مدائحه التي غالى فيها وافرط حتى قارب الكفر وجاوزه كما اشار الى تصريحه بكفر مقيت مشيرا الى ان ابا نؤاس كان مكثرا من هذه الصور المقيتة الماجنة . وبعد ان يذكر نماذج من اساءات ابي نؤاس ينحو في دراستها منحى تطبيقا يؤكد رأيه في هذا الشاعر بقوله (ومع هذا فأنا لانعرف بعد بشار اشعر منه)(٨١) .

هذه نماذج من آراء الجاحظ في شاعرين من اشهر الشعراء المحدثين وقف منها موقفا منصفا في بيان مكانتيهما الفنية دون ان يأخذه التعصب والهوى الى قديم ومحدث وهو بهذا يطبق مادعا اليه من وجوب النظر الى الاشعار بمقياس الجودة والابداع دون الركون الى الهوى الشخصي في تفضيل القديم على المحدث دائما لان الجيد من الاشعار موجود في كل زمان ومكان ولم يكتف بالدعوة النظرية فحسب وانما طبق هذه النظرة الموضوعية في جميع مؤلفاته التي تمثل فيها بشواهد من الشعر العربي القديم والمحدث كل في مكانه من الاستشهاد وما يقدمه من فائدة لغوية او معنوية . وسنجد لدعوته قبولا وصدى طيبا بعد عصره فيتنبه اليها النقاد والادباء وتصبح الدعوة الى الانصاف تيارا لدى جيل من الادباء يضاهي تيار التعصب للقديم والعكوف عليه . ويعد ابن قتيبة اول من تبنى فكرة الجاحظ هذه وفصل فيها واضاف اليها شواهد عقلية مقنعة وذلك في كتابه الشعر والشعراء وفي مقدمته بصورة خاصة .

---

(٨١) الحيوان ٤ / ٤٥٧ . وانظر تاريخ النقد الادبي ـ عتيق ـ ص ٣٦٦